الفصل الرابع

المسيحية والوعد المقدس

وصدق وعد الله فكان من إبراهيم أمة وكان من أعقابه نسل كعدد نجوم السماء وانتشرت ذريته شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا ، سكن الاسماعيليون أبناء إسماعيل بن إبراهيم أو العرب العدنانية كما يعرفون عند مؤرخى العرب فى شمال الجزيرة العربية واتصلوا بأبناء عمومتهم العرب القحطانية فأصهروا إليهم وصاهروهم وقيل عن الإسماعيلية أنهم العرب المستعربة أى الذين استعربوا أو أصبحوا كالعرب سكان الجزيرة الأصليين وتكلموا إحدى اللهجات المنتشرة حينذاك فى شبه الجزيرة العربية فأصبحت لغتهم وهى اللهجة التى تطورت على مر الزمن فكانت لهجة عدنان التى تبلورت فأصبحت لغة قريش وعمت حتى غلبت على غيرها من اللهجات العربية الأخرى فى الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام ببضع مئات من السنين .

ومن الثابت أن إبراهيم حين نزح بامرأته هاجر وابنه إسماعيل إلى الجنوب وتفجرت بئر زمزم قد أقام بيتا للرب إلى جوار البئر كالبيت الذى أقامه للرب فى بيت ايل (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون) .

ويبدو أن دين إبراهيم قد عمّ بين سكان الجزيرة العربية فقد أقام

إبراهيم البيت على محطٍّ للرواحل بين الشمال والجنوب ولعله فى اختياره لتلك البقعة كان يقصد أن يكون البيت منتجع قبائل العرب ومهوى أفئدتهم وأن تنتشر ديانته بين العرب من قاصدى البيت أو المارين به . فالمعروف أن الكعبة قبل ظهور الإسلام بزمن طويل قد أصبحت بيتاً مقدساً لدى العرب أجمعين ، وكان لكل قبيلة عربية وثن أو صنم يقيمونه فيها ويتقربون بإقامته إلى الله فى رحابها . وليس غريباً أن تتسرّب الوثنية إلى دين إبراهيم فقد تسربت أيضاً إلى إسرائيل فأقام الإسرائيليون الأنصاب والأزلام فى الهيكل وقربوا لها القرابين وسجدوا لها من دون الله كما هو ثابت فى أسفار العهد القديم بل إنهم اتخذوا من سبائك الذهب عجلاً عبدوه وهم فى التيه حين غاب عنهم موسى فى صعوده إلى الجبل لمناجاة الله[1] .

ومن ولد إبراهيم أيضاً أبناؤه من قطورة وهم آباء ست عشرة قبيلة يقول علماء التوراة إنها قبائل عربية خالصة[2] . ويقال إن قطوراهم هى قطوراء فى رأى النسابين وهم أبناء عم جرهم ، أقبلوا ظعناً من اليمن وأقاموا بمكة ، على جرهم مضاض بن عمرو وعلى قطوراء السميدع ، واتصلوا بالعدنانيين أبناء إسماعيل وعاشوا بينهم ، إلاّ أننا لا نجد فيما ذكره النسابون مايدلّ على أصل قبيلة قطوراء وإن ذكر ابن خلدون أن قطورا هى بنت يقطان ، وفى سيرة ابن هشام أن قطوراء هو أوّل من تكلم بالعربية عند تبلبل الأفكار .

ويقال إن سدانة الكعبة كانت لجرهم قبل أن تنتزعها منهم خزاعة وتنتقل من خزاعة إلى قريش . وجرهم هذه هى جرهم الثانية وقد ظهرت

---

(١) خروج ٣٢ : ١ - ٦ .

(٢) جواد على : جـ ١ ص ٢٨٣ .

بعد هلاك جرهم الأولى ، وفى جرهم الثانية هذه نشأ إسماعيل ، خلفه أبوه بينهم بعد أن قام ببناء الكعبة وآب إلى أرض كنعان .

ولعل تلك الصلة الجديدة بين إبراهيم وجرهم هى التى أدّت إلى زواج إبراهيم من ابنة عمهم قطورة . ويبدو أن القبائل التى تنسب إلى أبناء إبراهيم من قطورة قد انتشرت فى شمال الجزيرة العربية وامتد هذا الانتشار أحياناً إلى بادية الشام وطور سيناء كما يظهر ذلك فى المدوّنات الأشورية وغير الأشورية التى تشير إليهم ، وأنهم كانوا يقيمون على طريق الرواحل بين اليمن والشام ، وهناك من يقول كالعلامة « جليسر »[1] : إن كلمة قطورة تعنى البخور مما يؤيد أنهم كانوا يقيمون على طريق الرواحل التى تحمل البخور ،

ويرجع علماء التوراة أصل قبائل شبا ودادان ومدين إلى قطورة ومن المعروف أن موسى أصهر إلى يثرون كاهن مدين فى ابنته صفوره مما يؤيد اتصال نسب إسرائيل بقطورة .

أما ولدا إبراهيم من سارة – عيسو ويعقوب – فقد انقسما على بعضهما فارتحل عيسو إلى جبل سعير وهو مرتفع من الأرض بين برية « صين » إلى الغرب وبلاد العرب إلى الشرق ويشمل كل تخوم كنعان الجنوبية من البحر الميت إلى خليج العقبة ويعرف ببلاد « أدوم »[2] وإليها ينسب الأدوميون أبناء عيسو وكانت لهم مملكة تداولها ملوكهم قبل أن يكون لإسرائيل مملكة بزمن طويل[3] وظلّوا سادة الطرق التجارية بين الجنوب والشمال حتى أديل منهم إلى النبط .

وقد اتصلت كراهية عيسو لشقيقه يعقوب فيهم فوقفوا دون عبور

---

(١) Glaser. Skisse 2. P. 449

(٢) جواد على : جـ ٢ ص ٣٥٧ .

(٣) تكوين ٣٦ : ٣١

إسرائيل إلى فلسطين وحالوا بينهم وبين المرور فى أراضيهم « فقال له أدوم لا تمر بى لئلّا أخرج للقائك بالسيف . فقال له بنو إسرائيل . فى السكة نصعد وإذا شربنا أنا ومواشى من مائك أدفع ثمنه . لا شىء . أمر برجلى فقط . فقال لا تمر . وخرج أدوم للقائه بشعب غفير وبيد شديدة . وأبى أدوم أن يسمح لإسرائيل بالمرور فى تخومه فتحوّل إسرائيل عنه »[1] ..

وامتدت عداوة أدوم لإسرائيل حتى وقعت الحرب بينهما فى عهد « شاءول » ومن جاء بعده ، بالرغم من أن الإسرائيليين قد جهدوا دون جدوى فى إرضاء الأدوميين والظفر بمودّتهم فكانوا يذكرونهم بما بينهما من قربى وأن أباهما واحد إلا أن لهيب العداوة فى نفس الأدوميين للعبريين ظلّ حاميًا فحالفوا أعداءهم عليهم .

ولا يبقى بعد هؤلاء من ذرية إبراهيم غرباء مشردين لا يملكون أرضًا غير بنى إسرائيل وكان وعد الرب لإبراهيم أن يكون نسله كعدد نجوم السماء وأن تملك ذريته تلك الأرض التى تمتد من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات وأن يكون منهم أمم وملوك . فإذا كان الوعد بالإرث للأرض وليس للرسالة أو البركة – رسالة إبراهيم وبركته – فقد ملكت ذرية إبراهيم أكثر هذه الأرض ولم يكن لإسرائيل مبرك بعير فيها كما رأينا ، فإذا أراد الله لإسرائيل أن تخرج من مصر وتصعد إلى أرض كنعان فلكمال الوعد . وليجتمع نسل إبراهيم فى صعيد واحد . وكان وحى الرب لموسى وأنبياء إسرائيل من بعده بالصعود إلى أرض كنعان وامتلاكها تحقيقًا لاكتمال العهد ، إلّا أن بنى إسرائيل قد جهدوا عبثًا أن يملكوا أرض كنعان فما استطاعوا حتى بعد أن وصل ملكهم فى عهد داود وسليمان إلى أقصى مداه ، مما يؤيد أن الوعد بالإرث لم يكن للأرض وإنما كان للبركة

---

(١) عدد ٢٠ : ١٨ – ٢١ .

والرسالة فحيثما آمنت ذرية إبراهيم برسالته حلّت فيهم البركة وحقّ لهم الوعد ، وحيثما جحدوها وتنكروا لها لم يكن لهم فى بركته نصيب وأصبحت أرض الميعاد حرامًا عليهم ، وفى أسفار العهد القديم ما يشير إلى أن الله قد شرّد بنى إسرائيل وشتتهم بين شعوب الأرض أذلاء مستضعفين حتى لا ينجسوا أرض ميعاده وبيته المقدس .

« ولكن إن لم تسمع لصوت الرب إلهك لتحرص أن تعمل بجميع وصاياه وفرائضه التى أنا أوصيك بها اليوم تأتى عليك جميع هذه اللعنات وتدركك . ملعونا تكون فى المدينة ملعونا تكون فى الحقل . ملعونة تكون سلتك ومعجنك . ملعونة تكون ثمرة بطنك وثمرة أرضك نتاج بقرك وإناث غنمك . ملعونا تكون فى دخولك وملعونا تكون فى خروجك . يرسل الرب عليك اللعن والاضطراب والزجر فى كل ما تمتد إليه يدك لتعمله حتى تهلك وتفنى سريعًا من أجل سوء أفعالك إذ تركتنى . يلصق بك الرب الوباء حتى يبيدك عن الأرض التى أنت داخل إليها لكى تمتلكها . يضربك الرب بالسل والحمى والبرداء والالتهاب والجفاف واللفح والذبول فتتبعك حتى تفنيك . وتكون سماؤك التى فوق رأسك نحاسًا والأرض التى تحتك حديدًا . ويجعل الرب مطر أرضك غبارًا وترابًا ينزل عليك من السماء حتى تهلك . يجعلك الرب منهزما أمام أعدائك فى طريق واحدة تخرج عليهم وفى سبع طرق تهرب أمامهم وتكون قلقًا فى جميع ممالك الأرض[1] .

« ويبددك الرب فى جميع الشعوب من أقصاء الأرض إلى أقصائها وتعبد هناك آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك من خشب وحجر . وفى تلك الأمم لا تطمئن ولا يكون قرار لقدمك بل يعطيك الرب هناك قلبًا مرتجفًا

---

(١) تثنية ٢٨ : ١٥ - ٢٥ .

وكلال العينين وذبول النفس ، وتكون حياتك معلقة قدامك وترتعب ليل نهار ولا تأمن على حياتك ، فى الصباح تقول ياليته المساء وفى المساء تقول ياليته الصباح من ارتعاب قلبك الذى ترتعب ومن منظر عينيك الذى تنظر . ويردك الرب إلى مصر فى سفن فى الطريق التى قلت لك لا تعد تراها فتباعون هناك لأعدائك عبيدًا وإماء وليس من يشترى[1] » .

وفى أرميا « ولم يستطع الرب أن يحتمل بعد من أجل شر أعمالكم من أجل الرجاسات التى فعلتم فصارت أرضكم خربة ودهشا ولعنة بلا ساكن كهذا اليوم »[2] .

فلو كان الوعد بالإرث للأرض وليس للرسالة والبركة لما كان هناك قيد أو شرط لامتلاك الأرض أما الأرض ، أرض البركة والرسالة ، فلابدّ وأن تكون لمن يمتازون بالبركة والرسالة من ذرية إبراهيم ، ولعل فى اختيار ذرية إبراهيم بالذات ما يقصد به إعلاء شأن الرسالة والنبوة ، وقد كانت النبوة فى إسرائيل حتى قام بها المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فنسخ حق إسرائيل فى البركة والرسالة معًا . ثم كان محمد ﷺ فصدّق بإبراهيم وموسى وعيسى وختم رسالة السماء وحلّت فيه بركة إبراهيم ورسالته .

والاختيار للأرض وليس للشعب فالأرض هى الأرض المباركة التى قدستها اليهودية والمسيحية والإسلام على السواء وقد اختار الله تلك الأرض وسطًا فى دنيا العالم القديم ، حيث شعّت أولى حضارات التاريخ وأشرقت شمس المدنية ، وهى اليوم كما كانت بالأمس ملتقى الحضارات والأفكار وهى على الطريق من عالمنا الحاضر ترد إليها وتصدر عنها كلّ تيارات العالم السياسية والفكرية وتتلاحم على أديمها كل صنوف الأمم .

---

(١) تثنية ٢٨ : ٦٤ – ٦٨ .

(٢) أرميا ٤٤ : ٢٢ .

وكان اختيار الله لتلك الأرض التى باركها وقدّسها لتكون قدس أنبيائه وموطن رسالته إلى البشر ، حتى تكون رسالته إلى كل العالمين طرًّا فليس هناك من مكان يتوسط العالم كفلسطين حيث يمكن للرسالة أن تجتاز أربعة أركان الدنيا وتعمّ البشر أجمعين .

ومادام الاختيار الإلهى قد وقع على تلك الأرض لتصدر عنها رسالات السماء – اليهودية والمسيحية والإسلام – فلابدّ وأن يقع الاختيار أيضًا على أولئك الذين يضطلعون برسالات السماء لتكون لهم الأرض دون غيرهم ، وقد حلّت بركة السماء فى إبراهيم وذريته فكان منهم الأنبياء والمرسلون ، وكانت الأرض له ولذريته من بعده .

وقد عبر إبراهيم بأمر الرب إلى أرض كنعان ووعد بأن تكون له ولذريته تلك الأرض من الفرات إلى النيل ولكن إبراهيم مات دون أن يملك شبرًا واحدًا فى تلك الأرض وحين اختار مكان قبره وقبر سارة زوجته وآل بيته فى مغارة المكفيلة أمام ممرا وكانت على طرف حقل لعفرون ابن صوحر الحثى ، ابتاع المكان من صاحبه . ولعله لم يملك فى فلسطين غير سكنه وقبره هذا .

وقد مرت بضع مئات من السنين دون أن يكون لإبراهيم أو لأحد من ذريته مكان فى فلسطين إلا أن ذريته من الإسماعيليين والقطوريين والأدوميين قد انتشروا كما رأينا فى بقاع أخرى من أرض الميعاد وملكوا عليها قبل أن يصعد بنو إسرائيل إلى فلسطين حتى إذا صعدوا بعد خروجهم من مصر ، أقاموا ملكاً لم يسع كل بلاد فلسطين فى يوم من الأيام . ولم تملك ذرية إبراهيم أرض الميعاد إلّا فى ظل الإسلام فكانت للعرب مقاماً وملكاً إلى يومنا هذا وتحقق فى العرب الإسماعيلية وعد الله لإبراهيم كما لم يتحقق فى أحد من ذريته الآخرين وحلّت فيهم بركة العهد

وبركة الرسالة وكانت لهم أرض الميعاد مصداق ما عاهد عليه الرب نبيه إبراهيم .

وليست فلسطين وحدها هى أرض الميعاد كما يدعى اليهود فى تفسيرهم للتوراة فإن عبارة « من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات » تضم بقاعاً وتخوماً تمتدّ إلى ما وراء فلسطين وما بعدها ، هى طور سيناء وما يواجهها شرقاً من بلاد العرب الشمالية وكل بادية الشام والأردن وفلسطين ولبنان وسوريا حتى أعالى الفرات وقد أقام إبراهيم بيتين للرب فى أرض ميعاده ، أشارت التوراة إلى أحدهما ولم تشر إلى الآخر ، بيت ايل فى أرض كنعان والبيت المحرم (الكعبة) إلى جوار جرهم فى العرب الشمالية مما يدلّ دلالة قاطعة على أن أرض الميعاد ليست هى فلسطين وحدها كما أنها ليست لبنى إسرائيل وحدهم دون البقية من ذرية إبراهيم أو الإسماعيليين على وجه أدق إذا عرفنا أن القطوريين والأدوميين قد اندمجوا فى العرب الإسماعيلية بعد ذلك لطول ما كان بينهم من جيرة وصلات ، ويقصّ العهد القديم أن المديانيين كانوا مع الإسماعيليين حين بيع يوسف[1] والمديانيون كما قلنا هم نسل إبراهيم من قطورة ويرى « حتى » أن أرضهم تقع فى بلاد العرب[2] .

والثابت تاريخياً أن الشريعة الموسوية قد تأثرت إلى حدٍّ بعيد بعبادة أهل مدين أو المديانيين وهى عبادة « يهوه » إله قبيلة مدين وبعض بلاد العرب الشمالية وقد شاعت هذه العبادة بين العبريين[3] وهذا ما يحمل بعض المؤرخين على القول بأن الدين اليهودى ينم عن أصل صحراوى .

---

(١) تكوين ٣٧ : ٢٧ - ٢٨ .

(٢) Hitti, P. 40.

(٣) جواد على جـ ٢ ص ٣٥٢ .

وليس لدينا من تفسير لذلك إلّا أنّ ديانة إبراهيم قد انتشرت فى بعض بلاد العرب الشمالية أو كلّها مما يدلّ على أن بركة إبراهيم ورسالته لم تكن لإسحق وحده وإنما كانت لإسمعيل أيضاً ، فإذا كان الإرث للبركة والرسالة ، فإن رسالة إبراهيم قد شملت بعض بلاد العرب الشمالية وامتدت إلى أرض كنعان بعد نزول بنى إسرائيل إليها مما يقطع بأن أرض الميعاد ليست أرض كنعان وحدها وإنما هى تلك البلاد الفسيحة التى تمتد من مصر إلى أعالى الفرات .

وينسب العهد القديم قصة فداء يفسرها علماء التوراة أنها لإسحق[1] كما يقص القرآن قصة فداء ينسبها المسلمون لإسمعيل أو أن الفداء كان لكل منهما ويكون فداء إسمعيل قد سبق فداء إسحق فقد اكتمل إسماعيل صبياً حين حمله أبوه إلى برية فاران مع أمه ، وكان إسحق طفلاً فى فطامه[2] مما يوحى بأن بركة إبراهيم كانت لإسمعيل وإسحق على حد سواء . إلّا أن عبادة إبراهيم قد تبلورت فى شريعة موسى ورسالته ، وكانت رسالة موسى إلى بنى إسرائيل تمهيداً لرسالة السماء الكبرى فى المسيحية والإسلام ، ففى ظلّ المسيحية والإسلام ينطوى البشر أجمعون ، من ذرية إبراهيم ومن غير ذريته ، وليس فى قصر رسالة موسى على إسرائيل ما يفيد معنى الاختيار أو التميز فقد كانت رسالة إبراهيم إلى أهله وبنيه ، وكان كلّ رسول يبعث إلى قومه ، وكانت رسالة موسى إلى بنى إسرائيل هى آخر رسالة لنبى إلى قوم بعينهم فقد جاءت المسيحية مبشرة بملكوت السماء للبشر جميعاً وجاء الإسلام هدى للناس كافة لا فضل فيه لعربىٍّ على عجمىٍّ إلّا بالتقوى فإذا تميز بنو إسرائيل بالاختيار فهو الاختيار

---

(١) تكوين ٢٢ : ١ - ١٤ .

(٢) تكوين ٢١ : ٨ - ٢١ .

الذى كان لغيرهم من الأقوام التى سبق إليها الرسل والأنبياء ، وهو الاختيار الذى يقوم على الإيمان بالرسالة ولا يقوم على أفضلية العنصر أو الجنس ، وهو الاختيار الموقوت بزمن الرسالة ، فإذا حلّت رسالة أخرى محلّها فقد زال عنهم الاختيار وما يصحبه من تميز المؤمن على الوثنى لا تميز العنصر على العناصر الأخرى .

وقد جاءت المسيحية لتصحح فهم الإسرائيليين لمعنى الاختيار ولتجدد نقاء اليهودية بعد أن تسربت إليها أباطيل العنصرية والتميز والانحراف عن مبادئ إبراهيم وتعاليمه . فالمسيح عيسى بن مريم عليه السلام هو أحد فروع تلك الشجرة المباركة التى تنسب إلى نبى الله إبراهيم عليه السلام ، فهو « يسوع المسيح ابن داود ابن إبراهيم . إبراهيم ولد إسحق ، وإسحق ولد يعقوب . ويعقوب ولد يهوذا وإخوته . ويهوذا ولد فارص وزارح من ثامار . وفارص ولد حصرون . وحصرون ولد أرام . وأرام ولد عمينا داب . وعميناداب ولد نحشون ، ونحشون ولد سلمون . وسلمون ولد بوعز من راحاب . وبوعز ولد عوبيد من راعوث . وعوبيد ولد يسى ، ويسى ولد داود الملك . وداود الملك ولد سليمان من التى لاوريا . وسليمان ولد رحبعام . ورحبعام ولد أبيا . وأبيا ولد آسا . وآسا ولد يهو شافاط . ويهو شافاط ولد يورام . ويورام ولد عزيا وعزيا ولد يوثام ويوثام ولد أحاز . وأحاز ولد حزقيا وحزقيا ولد منسى . ومنسى ولد آمون . وآمون ولد يوشيا . ويوشيا ولد يكنيا وأخوته عند سبى بابل . وبعد سبى بابل يكنيا ولد شالتئيل . وشالتئيل ولد زربابل . وزربابل ولد أبيهود . وأبيهود ولد الياقيم . والياقيم ولد عازور . وعازور ولد صادوق . وصادوق ولد أخيم . وأخيم ولد اليود . واليود ولد اليعازر واليعازر ولد متان . ومتان ولد يعقوب . ويعقوب ولد يوسف رجل مريم التى ولد منها يسوع الذى يدعى المسيح . فجميع الأجيال من إبراهيم إلى داود أربعة

عشر جيلاً ، ومن داود إلى سبى بابل أربعة عشر جيلاً . ومن سبى بابل إلى المسيح أربعة عشر جيلاً »[1] .

وقد أبرز المسيح منذ البداية أنه ما جاء لينقض دين إبراهيم وشريعة موسى بل جاء ليكمل « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل . فإنى الحق أقول لكم ، إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يتم الكل[2] » مما يدل على أن رسالة إبراهيم كانت بداية تطور تكمل فى غايته رسالة السماء ، وأن أنبياء إسرائيل ليسوا سوى لبنات فى سلم التطور العام للأديان السماوية وأن شريعة موسى ورسالة المسيح لم يكونا سوى مرحلتين من مراحل التطور الهام للرسالة التى بدأت بإبراهيم وختمت بمحمد .

وفى قول المسيح « إن لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السموات[3] » دليل هذا التطور فى تعاليم الديانة المسيحية ، فلو لم تأت المسيحية بجديد على شريعة موسى لكانت تكرارًا لما قبلها ولو لم تزد المسيحية على تعاليم اليهودية لما كانت هناك حاجة إليها ، فعملية التطور والارتقاء قد صاحبت نموّ الأديان ، فالصور المادية الساذجة فى أسفار العهد القديم كالتجسد الإلهى وظهور الإله والملائكة فى صور بشرية كانت ولا شكّ توائم مستوى الارتقاء العقلى والفكرى فى عصرها ، وكثير من الطقوس الدينية فى الشريعة الموسوية تستثير سذاجتها تفكير إنسان القرن العشرين ولكنها فى وقتها كانت تمثل مرحلة ارتقاء فى التفكير البشرى ، وإذا قارنا تعاليم المسيحية وطقوسها بالتعاليم الموسوية

---

(١) متى ١ : ١ - ١٧ .

(٢) متى ١٥ : ١٧ - ١٨ .

(٣) متى ٥ : ٢٠ .

وطقوسها بدت متقدّمة عليها من حيث التطور والارتقاء ، ولعلّ قصة الفداء فى التوراة والقرآن تمثل مرحلة من مراحل تطوّر العقيدة وارتقائها ، فالقربان البشرى قد افتدى بقربان من الحيوان ، بل إن قصة عروس النيل وما كان من موقف عمر بن الخطاب منها حين استشير فى أمرها ، فأشار بأن تبقى الطقوس على حالها وأن تلقى عروس من الطفل بدل العروس البشرية إلى النيل هى خير ما يهدينا إلى حقيقة هذا التطور فى عقيدة من العقائد . فالثورة على التقاليد البالية قد يحملها إلى رجعى بغيضة وتعصب مقيت ، أما التطور فهو عملية ارتقاء غير محسوس تحقق فى هدوئها ما لا تحققه الثورة فى عنفها ، وحين يكتمل التطور ويصبح العقل البشرى معدًّا لقبول التغيير تغدو الثورة ضرورة حتميّة لإتمام التغيير ، والثورة هنا هى مواجهة الواقع فى شجاعة تعوز المترددين ، ففى بعض مراحل التقدم الإنسانى تقف مرحلة التطور عند الخوف من التغيير الشامل أو الحذر من الجديد وحينئذ تتمثل الشجاعة فى مواجهة الواقع والتسليم بحكمة التطور ، والثورة هنا ليست قلبًا للأوضاع أو زلزلة للنظام الاجتماعى ولكنها جرأة على مواجهة التطوّر الذى يحسّه ويسلم به كل فرد ولكنه لا يجرؤ على الجهر به ، فمما لا شك فيه أن ظهور المسيح قد صاحب استعدادًا عامًّا لقبول رسالته حين غدا التفكير الإنسانى أكثر سعةً وشمولاً ، وأصبح الإنسان أكثر استعدادًا لقبول التغيير الجديد .

وتبرز قصة المسيح المنتظر مدى التطور فى العقيدة اليهودية والرجاء الذى كان يعقده اليهود أو بعض طوائفهم بالذات على ظهور النبى المخلص أو الهادى .

فبعد أن سقطت يهودا وحمل اليهود سبايا إلى أرض بابل أخذوا يحلمون بقيام ملك من نسل داود يقود الجند ويجتاح بهم مدن أعدائهم ويعيد

ملك داود وسليمان وكانوا يسمونه مسيحًا لأنهم كانوا يمسحون ملوكهم بالزيت المقدس فيقال له مسيح الرب .

وتجدّد أملهم فى المسيح المنتظر بعد أن دالت دول أعدائهم من البابليين والمصريين وظنوا أن نجم إسرائيل قد آذن بالارتفاع ، ولكنهم وقعوا فى ربقة الدولة الرومانية ففقدوا كلّ أمل فى مجد القوة وغدا خلصاؤهم والصالحون منهم يأملون الخلاص بالهداية والتطهر أكثر مما يرجون الخلاص فى القوة والسلطان ورأوا فى المسيح المنتظر هاديًا ومبشرًا بالتوبة والتطهير ، وبعد أن كانوا يصفونه بالقوة والبأس والجبروت وشهوة السلطان والفتح أخذوا يصفونه بالوداعة والرضى والرحمة والحنان يجفو صهوات الجياد ويركب « حمارًا ابن أتان » .

وكان ظهور يوحنّا المعمدان أو يوحنا المغتسل – وقد ذكر فى القرآن باسم يحيى بن زكريا – بشيرًا باقتراب موعد ظهور المسيح المنتظر . وقد أخذ يوحنا يدعو إلى التوبة والتطهر من الذنوب ويبشر باقتراب « ملكوت الله » أو ملكوت السماء ، وجاشت بدعوته كل بطاح الأردن وعلى يديه تتلمذ المسيح عيسى بن مريم عليه السلام .

فالتطور فى فكرة المسيح المنتظر هو التطور فى العقيدة الدينية ، التطور من عالم المادة إلى عالم الروح ومن عالم الحس إلى عالم الضمير ومن المراسيم والطقوس الحسية إلى الحقائق المعنوية المجردة .

وجاء المسيح مبشرًا بملكوت السماء فعلم الناس أن ملكوت الله قائم فيهم وأنه موجود فى كل زمان ومكان ، وجاء بشيرًا للناس كافة لا لجماعة بعينها ولا لقوم دون الآخرين . وجاء يدعو إلى المحبة فى عالم اجتاحته الأثرة والأنانية وحب الذات والاستعلاء واستعباد الضعفاء .

وعاش فى عالم لا حاجة به إلى تشريع أو قانون فقد حجبت التشريعات الرومانية كلّ تشريع آخر وانتظم قانونها كلّ رعاياها ولكنه فى حاجة إلى الحب فبشّر بالحب ودعا إليه ، فكانت المسيحية رسالة المحبة والغفران والسمو بالنفس الإنسانية إلى أعلا عليين ، وخطت بذلك أعظم خطوات التطور الدينى نحو الكمال المطلق فى الإسلام وبذا ختمت رسالة السماء التى بدأت بإبراهيم وانتهت بمحمد ، فاكتملت صورة الوحدانية وحد الفاصل بين الخير والشر والثواب والعقاب والفضيلة والرذيلة وعرفت موازين الخلق وحدود الشرائع وقومت الحياة الإنسانية خير تقويم يتفق وواقع الحياة وخير البشر وصلاحهم .

ولا حاجة بنا فى هذا المقام إلى تفصيل مراحل هذا التطور الدينى وبيان صوره فإن كل ما يعنينا أن الأديان السماوية كلٌّ متكامل فى هذا الوجود الإنسانى تطورت بتطوّره ونمت إلى الكمال بنماء هذا الوجود الإنسانى نحو الكمال ، ولا يعنى هذا أن تطوّر الفكرة الدينية قد وقف عند رسالة محمد عليه الصلاة والسلام فإن مظاهر الإسلام مازالت تقبل التأويل والتفسير لتساير تطور الوجود الإنسانى نحو الكمال ، ومعجزة الإسلام أنه دين يساير كلّ زمان ومكان ويتطور بتطور الفكر الإنسانى وتقدمه ، وكل ما يقف عنده الإسلام فلا يقبل فيه تفسيرًا أو تأويلًا هو الجوهر وليس العرض فالوحدانية هى جوهر الإسلام لا تقبل تأويلًا أو تفسيرًا أما المظاهر العامة للعبادات والتشريعات الاجتماعية فهى قابلة للتأويل والتفسير وقد تناولها المجتهدون منذ البداية بتفسيرات شتى ووضعوا لها حدودًا متباينة ولكنها فى تباينها لا تمسّ جوهر العقيدة أو تلمسها بتفسير أو تأويل ، وقد ظنّ علماء الإسلام أن باب الاجتهاد قد أقفل على الأئمة الأربعة حتى ظهر « ابن تيمية » ففتح باب الاجتهاد من جديد وجاء بعده مجتهدون آخرون منهم من أخذ بسنّة السلف ومنهم من جدّد وكان الشيخ

الإمام محمد عبده آخر المجددين فى هذا المضمار .

فإذا كانت الأديان السماوية كلاً متكاملاً تتصل بهذا الوجود الإنسانى فى تكاملها فإن قصر عقيدة منها على أمة أو شعب أو عنصر دون الآخرين هو افتئات على جوهر العقيدة وشذوذ فى وحدة الوجود الإنسانى .

وقد بعث موسى إلى بنى إسرائيل كما بعث صالح إلى ثمود وشعيب إلى مدين وهود إلى قوم عاد ، ولا يمكن أن نعدّ فى هذا الرعيل الأوّل من الأنبياء، أنبياء إسرائيل بعد موسى فقد كانوا كما قلنا من قبل كأولياء الله فى الإسلام والقديسين فى المسيحية ، وكان ذلك حين كانت رسالة كلّ نبى إلى شعبه حتى إذا عمّت الرسالة نسخت حقّ هؤلاء الأنبياء جميعًا بما فيها الديانة اليهودية ، إذا أراد بنو إسرائيل أن تكون رسالة موسى لهم وحدهم لا يشاركم فيها غيرهم ولا يبشرون بها لغيرهم كما جرت سنتهم ، أما إذا أرادوها رسالةً للبشر عامة وبشّروا بها بين الناس فإن ذلك ينسخ دعواهم فى التميز والاختيار على غير ما يريدون ويدحض ما يدّعونه من حق فى أرض الميعاد على غير ما يحبّون ، وهم على هذه الوتيرة من تأويل الوعد المقدس لإبراهيم ، ينسخون فى الوقت ذاته دعواهم فى أرض الميعاد بظهور المسيح المنتظر الذى بشّروا به من قبل ، فقد جاء المسيح كما بشّر به النبى زكريا بقوله : « ابتهجى جدا يا ابنة صهيون اهتفى يابنت أورشليم هو ذا ملكك يأتى هو عادل ومنصور وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان[1] » وحين صعد المسيح إلى أورشليم صعد إليها كما قال زكريا على ظهر « حمار ابن أتان » – « ولما دنوا من أورشليم وجاءوا إلى بيت فاجى عند جبل الزيتون حينئذ أرسل يسوع تلميذين قائلاً لهما : اذهبا إلى القرية التى أمامكما فللوقت تجدان أتانًا مربوطةً وجحشًا معها

(١) زكريا ٩ : ٩ .

فحلّاها وأتيا لى بهما ، وإن قال لكما أحد شيئًا فقولا الرب محتاج إليهما . فللوقت يرسلهما . فكان هذا كلّه لكى يتم ما قيل بالنبى القائل . قولوا لابنة صهيون هو ذا ملكك يأتيك وديعًا راكبًا على أتان وجحش ابن أتان . فذهب التلميذان وفعلا كما أمرهما يسوع . وأتيا بالأتان والجحش ووضعا عليهما ثيابهما فجلس عليهما . والجمع الأكثر فرشوا ثيابهم فى الطريق . وآخرون قطعوا أغصانا من الشجر وفرشوها فى الطريق . والجموع الذين تقدموا والذين تبعوا كانوا يصرخون قائلين أوصنا لابن داود . مبارك الآتى باسم الرب . أوصنا فى الأعالى . ولما دخل أورشليم ارتجّت المدينة كلّها قائلة من هذا ؟ فقالت الجموع هذا يسوع النبى الذى من ناصرة الجليل[1] » .

فالأمل الذى راود بنى إسرائيل بظهور المسيح المنتظر قد تحقق بقيام عيسى عليه السلام برسالته ثم إن قدومه إلى أورشليم فى الصورة التى تخيّلوها قبل مجيئه لا شكّ يحقق أملهم فيه فليس هو المسيح القادر القاهر الذى يقود الجند ويحطم الدساكر ويجتاح القلاع والحصون يخضع له الملوك وتدين الأمم لسلطانه كما صوره أوائلهم ، وليس هو المسيح الذى ينزله الرب نقمةً على أعدائهم كما دعوا كورش ملك الفرس عندما خلّصهم من السبى البابلى وردّهم إلى أورشليم « هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش الذى أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمما وأحقاد ملوك أحل لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تغلق [2] » وليس هو المسيح المحتقر المخذول من الناس رجل الأوجاع والأحزان كما ذكر أشعياء وليس هو زربابل والى يهودا من قبل دارا ملك الفرس لأنه أعاد بناء الهيكل فقالوا عنه المسيح

---

(١) متى ١١ : ١ - ١١ .

(٢) أشعياء ٤٥ : ١ .

المنتظر ، وإنما هو المسيح العادل المنصور الوديع الذى يجفو صهوات الجياد ويركب « حمارًا ابن أتان » .

جاء المسيح عليه السلام إلى أورشليم وبشّر برسالته فى بنى إسرائيل ولم يأت لينقض بل جاء ليكمل فدعا إلى ملكوت السماء وقال إن ملكوت السماء يسع كل من دخل فيه . « أدعو الذى ليس شعبى شعبى والتى ليست محبوبة محبوبة[1] وإلى هذا يشير الرسول بولس بقوله : « لأنه فى المسيح يسوع ليس فى الختان ينفع شيئًا ولا الغرلة بل الخليقة الجديدة . فكل الذين يسلكون بحسب هذا القانون عليهم سلام ورحمة وعلى إسرائيل الله[2] » ومعنى ذلك أن الإسرائيليين الحقيقيين ليسوا هم الذين ينحدرون من صلب يعقوب أب الأسباط فحسب بل يشملون جميع المؤمنين المتحدين بالمسيح اتحادًا روحيًا والحاصلين على نعمة التجديد سواء أكانوا يهودًا أم أممًا .

ويؤيد ذلك ما قلناه من قبل من أن الوعد بالإرث ليس للأرض بل للرسالة والبركة ، وأن الاختيار ليس للشعب بل للأرض ، فالأرض هى الأرض المقدسة كما قلنا لم تتجاوزها القداسة إلى غيرها ، أما الرسالة والبركة فقد حلّت فيمن وقع عليه الاختيار الإلهى ، وكان يسوع المسيح عليه السلام هو الموعود بالبركة والرسالة حينذاك وقد حلّت بركته فى كل من اتحد به اتحادًا روحيًا وهذا ما يعنيه الرسول بولس بقوله : « لأن ليس جميع الذين من إسرائيل هم إسرائيليون . ولا لأنهم من نسل إبراهيم هم جميعًا أولاد ، بل بإسحاق يدعى لك نسل ، أى ليس أولاد الجسد هم

---

(١) رومية ٩ : ٢٥ .
(٢) غلاطية ٦ : ١٥ - ١٦ .

أولاد الله بل أولاد الموعد يحسبون نسلاً[1] » .

ويرى كثير من المسيحيين أن الوعود قد تحققت فى تلك البقية التى أشار إليها النبى أشعياء وهى التى أشار إليها الرسول بولس بقوله : « فكذلك فى الزمان الحاضر أيضًا قد حصلت بقية حسب اختيار النعمة . فإن كان بالنعمة فليس بعد بالأعمال . وإلاّ فليست النعمة بعد نعمة . وإن كان بالأعمال فيلس بعد نعمة . وإلاّ فالعمل لا يكون بعد عملاً . فماذا ، ما يطلبه إسرائيل ذلك لم ينله . ولكن المختارون نالوه[2] » فهذه البقية هى المختارة وهى التى اتحدت بالمسيح اتحادًا روحيًّا وتكوّنت منها كنيسة العهد الجديد ، وهى التى تتسع لتشمل الأمم جميعًا كما جاء فى وصية السيد المسيح لحوارييه : « فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس .[3] »

فرسالة المسيح قد نسخت حق بنى إسرائيل فى الاختيار ، حتى لو كان هذا الاختيار لبنى إسرائيل دون الأمم ولم يكن للأرض المقدسة كما نقول ، كما جبّت حقّهم فى البركة والرسالة بعد أن صارت الرسالة للأمم جميعًا وليست لبنى إسرائيل وحدهم ، وحلّت البركة فى عيسى ليضفيها على كلّ من اتحد به اتحادًا روحيًّا ودخل فى ملكوت الله .

كما نسخ بعثه رؤيا بنى إسرائيل فى قدوم المسيح المنتظر الذى يعيد مملكة داود ويجدّد بناء الهيكل ويعيد مجد أورشليم ، فقد قال بأنه المسيح المنتظر « أما يوحنا فلما سمع فى السجن بأعمال المسيح أرسل اثنين من تلاميذه . وقال له أنت هو الآتى أم ننتظر آخر . فأجاب يسوع وقال لهما

---

(١) رومیه ٩ : ٦ - ٨ .
(٢) رومیه ١١ : ٥ - ٧ .
(٣) متى ٢٨ : ١٩ .

اذهبا وأخبرا يوحنا بما تسمعان وتنظران . العمى يبصرون والعرج يمشون والبرص يطهرون والصم يسمعون والموتى يقومون والمساكين يبشرون وطوبى لمن لا يعثر فى[1] » .

ولم يعد بعد مسيحًا منتظرًا « حينئذ إن قال لكم أحد هو ذا المسيح هنا أو هناك فلا تصدقوا [2] » ولن تكون عودة المسيح إلا يوم الدينونة حين يجتمع الخلق جميعًا فى صعيد البعث والنشور . « والوقت بعد ضيق تلك الأيام تظلم الشمس والقمر لا يعطى ضوء والنجوم تسقط من السماء وقوات السماء تتزعزع . وحينئذ تظهر علامة ابن الإنسان فى السماء . وحينئذ تنوح جميع قبائل الأرض ويبصرون ابن الإنسان آتيًا على سحاب السماء بقوّة ومجد كثير . فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت فيجمعون مختاريه من الأربع الرياح من أقصاء السموات إلى أقصاها[3] » ثم يتحدث عن يوم الساعة فيقول ما تتفق عليه المسيحية والإسلام « وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها أحد ولا ملائكة السماء إلّا أبى وحده [4] » وهو ما ردّده القرآن فى مواضع كثيرة منها (إن الله عنده علم الساعة وينزّل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدًا وما تدرى نفس بأىّ أرض تموت إنّ الله عليم خبير[5]) .

ويربط بنو إسرائيل بين بعث المسيح المنتظر وعودتهم إلى فلسطين ويشايعهم فى هذا الاعتقاد بعض المسيحيين الذين يتوقعون عودة اليهود إلى فلسطين ليؤمنوا بالمسيح حين يعود إلى الأرض فيملؤها عدلاً وبرًّا

---

(١) متى ١١ : ٢ - ٦ .
(٢) متى ٢٤ : ٢٣ ..
(٣) متى ٢٤ : ٢٩ - ٣٠ .
(٤) متى ٥٤ : ٣٦ .
(٥) لقمان آية ٣٤ .

وسلامًا . وهم إذ يؤمنون بذلك يخطئون فى فهم مدلول الوعد الإلهى فإن ما يعنيه هذا الوعد هو عودة إسرائيل الروحى لا إسرائيل بحسب الجسد ، وأنه يشمل كلّ من يؤمن بالمسيح سواء أكان من اليهود أم من غيرهم من الأمم . ولن تكون عودة إسرائيل الروحى إلّا يوم القيامة كما جاء فى سفر حزقيال « هأنذا » أفتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم يا شعبى وآتى بكم إلى أرض إسرائيل . فتعلمون أنى أنا الرب عند فتحى قبوركم وإصعادى إياكم من قبوركم يا شعبى . وأجعل روحى فيكم فتحيون وأجعلكم فى أرضكم فتعلمون أنى أنا الرب تكلمت وأفعل يقول الرب[1] » .

وهو ما يتفق وتعاليم السيد المسيح إلى حوارييه عن عودته وعلامات تلك العودة مما سبقت الإشارة إليه ، فليست هناك عودة أخرى للمسيح إلّا يوم القيامة . وليست هناك عودة بالتالى لإسرائيل إلى فلسطين إلا عودتهم الروحية يوم القيامة ، أما العودةالتى أشارت إليها أسفار العهد القديم فهى عودتهم من السبى البابلى ولا تتكرر العودة مرة ثانية .

وخلاصة ما تقدم أن الإرث فى إبراهيم هو إرث البركة والرسالة ، وأن الاختيار للأرض وليس للشعب مما يدحض أسطورة شعب الله المختار وما يدعيه بنو إسرائيل من حق فى فلسطين أو أرض الميعاد ، وأن بركة إبراهيم تحلّ فيمن يختار للرسالة وأن المختارين هم المختارون للهداية أى من يبعث فيهم نبى أو رسول .

وقد حلّت بركة إبراهيم فى أنبياء إسرائيل كما حلّت فى غيرهم من الأنبياء الذين بعثوا إلى الأقوام الآخرين فالمعروف أن الأنبياء جميعًا هم من نسل إبراهيم ، وقد نسخت رسالة المسيح ما قبلها من الرسالات

---

(١) حزقيال ٣٧ : ١٣ - ١٤ .

فحلّت فيه بركة إبراهيم ورسالته كما نسخت حق إسرائيل فى الرسالة بشيوع رسالة المسيح إلى الأمم جميعًا من كان من إسرائيل أو من غير إسرائيل .

وأما الأرض فهى الأرض المختارة اختارها الرب فى الأزمنة القديمة لينحدر إليها إبراهيم لأنها بموقعها الذى يتوسط رقعة العالم القديم أصلح مكان لنشر دعوة الإيمان والتبشير بها فى العالم الوثنى المحيط ، وخصّ بها أصحاب البركة والرسل من نسل إبراهيم سواء أكان من إسمعيل أم من إسحق ، وقدّسها فى كلّ دين وفى كلّ زمان ومكان وخصّها بالمؤمنين من عباده